البلاغة الوظيفية في الدراسات الإعجازية

أ. عدة قادة

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

سيظل البحث عن وظيفية وفعالية الدرس اللغوي العربي التراثي مسعى الباحثين المحدثين استنادا إلى ما يجدُّ في الدراسات اللّسانية الحديثة بشقيها النّظري والتّطبيقي، وذلك لعمري مسلك نبيل يتوخى التجديد وبعث روح العصر في أوصال تلك الكنوز لتحيا من جديد حياة عصرية كما ينبغي لها وتؤتي ثمارها كما أتتها بالأمس، وهي قمينة بذلك لأنّه لا يمكن لأحد أن ينكر أنّ علاقة التراث بالحداثة هي علاقة الأصول بامتداداتها وتفرعاتها المتشعبة [1].

وهذه محاولة نحسب مسعاها كذلك، إذ الغاية كشف جانب من وظيفية البلاغة العربية في حقل يعدّ من أهم الحقول المعرفية التي نبع منها نبعها، وتفجّرت من خلالها عيونها، وذلك حقل الدراسات الإعجازية التي تصدّى أعلامها بصدق وإخلاص وروح علمية لا تتوانى لكل المزاعم والشبهات التي أثيرت حول الخطاب القرآني، وهدفهم الأسمى بيان حقيقة هذه المعجزة الربانية الخالدة، وإماطة اللثام عن أسرارها متوسلين إلى ذلك بما أوتوا من قوة البيان، وساطع البرهان.

résumé Cet article vise à révéler le côté fonctionnel de la leçon rhétorique dans un environnement de connaissances qui était l'un des plus importants environnements où a évolué et s'est épanouit la rhétorique arabe .C'était un environnement des études des miracles du coran dont les auteurs ont mobilisé et activé leurs détectives rhétoriques au fur et à mesure qu'ils révélaient le secret du miracle du coran.

تمهيد: لكم أصبحت الحاجة ماسة إلى قراءة تراثنا، وإعادة قراءته كلما تجدّدت للقارئ آليات القراءة ووسائلها، ولا زال العصر الحديث يفرز كثيرا من هذه الآليات والوسائل في مختلف الحقول المعرفية خاصة ما تعلّق منها باللسانيات التي تعنى " بالدراسة العلمية الموضوعية للسان البشري"[2].

وتعتبر اللّسانيات الوظيفية من أهم فروع اللسانيات التي تنطبع بالطابع العلمي خاصة وهي تتناول موضوع صناعة التعليم أو "التعليمية " اختصارا، وبوجه أخص تعليمية اللغة حيث أصبح تعليمها "يتجه نحو الوظيفية " والمقصود بتوجيه تعليم اللغة توجيها وظيفيا أن يهدف تعليمها إلى تحقيق القدرات اللغوية عند التلميذ بحيث يتمكن من ممارستها في وظائفها الطبيعية

العملية ممارسة صحيحة، ولا يمكن أن يتّجه تعليم اللغة هذا الاتجاه إلا إذا كانت هذه الوظائف الطبيعية للغة واضحة في ذهن المعلم "[3].

ولا يعني تعلّم اللغة بهذا المنظور في تصوّرنا أن يمتلك المتعلم مهارتي التواصل الشفوي والكتابي فحسب، بل يجب أن يؤهّل هذا المتعلم إلى مهارات أرقى من مهارات الفهم والمحادثة والقراءة والكتابة كمهارة التحليل الفني، والتذوق الأدبي، ومهارة إبداء الرأي أو الحكم، وتلك مهارات لا تقل شأنا عن مهارة الإبداع الأدبي أسمى ما يمكن أن نصل إليه ونحن نعلّم اللغة .

إنّ الوظيفية بمفهومها العام في تعلّم اللغة وتعليمها أن تصير اللغة أداة طيّعة في يد مستعملها ماثلة في لسانه الناطق، أو قلمه الكاتب، تشف تارة عن مكنونات الوجدان فتثير، وتارة أخرى عن بنات الجَنان فتنير، وفي كلّ الأحوال هي وسيلة للتعبير والتفكير عاطفة خلاقة، أو حجّة فتّاقة، وأداة للارتقاء بفكر وثقافة المتعلم ليكون عضوا فاعلا في المجتمع، ومواطنا صالحا يسهم في بناء قيم الحضارة والتطوُّر .

ولا شكّ أن جميع فروع اللغة تسهم في إكساب المتعلم جانبا من المهارات اللغوية وغير اللغوية إذا ما تعلّم اللغة بهذا المنظور، ولكنّ أهم درس لغوي في تصورنا يضطلع بهذه المهارات مجتمعة هو الدرس البلاغي، وبخاصة إذا كانت مرجعيته الخطاب القرآني المعجز الذي مثّل البلاغة العربية في أبهى صورها ونماذجها.

لقد أبهر النص القرآني متلقيه من عرب قريش فأذعنت له قلوب المؤمنين واستجابت، وعزَّ على الكفار والمشركين أن يسمعوا كلمة الحقّ، وهي تزلزل قلوبهم المريضة، فوسموه بالشّعر مرّة وبالسّحر تارة، وراح الملحدون فيما بعد يسلكون طريق أسلافهم من الكفار والمشركين، فيطعنون في القرآن، ويثيرون حوله الشبهات، ويتهمونه زورا وبهتانا خاصة لمّا امتدَّ رواق الجهل، واستولى على الآفاق، وذهل الناس عن الحقّ وصدّوا عن نصرته[4] .

وقد انبرى أعلام المسلمين يدفعون عن القرآن الكريم هذه الشبهات، ويردون تلك الحملات الشعواء، ويكشفون تفرّد هذا الخطاب عن غيره من الخطابات، ويثبتون إعجازه، ويبينون

للناس سرّ هذا الإعجاز وجوهره مجمعين على أنّ أظهر وجه له وأجلاه هو بلاغته ونظمه المتفرد، ولذلك راحوا يجلّون هذه الحقيقة الكبرى، فأسهموا بذلك في بيان كثير من مباحث الدرس البلاغي وقضاياه ليس على مستوى التنظير فحسب بل حتى على مستوى التحليل والتعليل والتطبيق، وبذلك اكتسب الدرس البلاغي في الدراسات الإعجازية فعالية منقطعة النظير شهدت بها مؤلفاتهم العلمية الذائعة الصيت في التراث اللغوي العربي .

وقد كان لهذه الفعالية جملة من الصور والمظاهر لعل أهمّها في اعتقادنا اتخاذ الدرس البلاغي وسيلة لغاية جليلة وهي كشف إعجاز القرآن الكريم، وبيان سرّ تفوقه على غيره من الخطابات بما تفرّد به من خصوصية في توظيف سائر المباحث البلاغية، وبيان ما كان له من قوة التأثير في المتلقي شاهدا بالحق أو كافرا به، كل ذلك كشف عنه أعلام الدراسات الإعجازية بمنهج بديع في التحليل والتعليل والتمثيل، ولا شك أنّ هذه الجوانب جعلت من الدرس البلاغي لدى هؤلاء الأعلام درسا وظيفيا بامتياز، وهذا ما نحاول أن نتبيّنه في ثلاث رسائل من الدراسات الإعجازية:"بيان إعجاز القرآن" لأبي سليمان محمد بن إبراهيم الخطابي (ت388هـ)، والنكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت386 هـ)، وإعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت403هـ) .

1-وظيفية مقاصد التأليف في الدراسات الإعجازية

لم تكن الدراسات الإعجازية ترفا فكريا قاد إليه الجدل العقيم، وإنما كانت دراسات علمية هادفة بامتياز، لأنّ دواعي التأليف ومقاصده جاءت ردّا على مزاعم نطق بها جهل أصحابها، أو قُل عنادهم وكبرُهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين .

لقد دفعت الحاجة العلمية أعلام الدراسات الإعجازية إلى دحض تلك الشبه والمزاعم التي أثارها المشركون والملحدون حول القرآن الكريم ساعين إلى الذود عن فكرة إعجازه التي نطق بها القرآن الكريم عاصفة مزلزلة معبرة عن عجز الإنس والجن مجتمعين عن الإتيان بمثل القرآن الكريم " قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ ظَهِيرًا "[5]، ولكنه العناد والكبر والكفر " وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا "[6].

لقد دفع هؤلاء الأعلام إلى تأليف رسائلهم إشكالات عرضت لهم في شكل أسئلة وردت إليهم، أو شبهات ومزاعم أثارها الكفار والناقمون على الإسلام، فكان بذلك تأليفهم في كل الحالات يتوخى الكشف والبيان لسر الإعجاز القرآني، وذلك معلم من أهم معالم الوظيفية، لأن الإجابة التي يقتضيها الإشكال أو السؤال يفترض أن تكون مختصرة بحجم السؤال، وأن تنطبع بالدقة والوضوح اللازمين للبيان وإماطة اللثام عن الحقيقة المجهولة أو المستورة .

وقد ظهرت الغايات جليّة في هذه الرسائل، فأبو سليمان الخطّابي (ت388 هـ) ينطق عنوان كتابه " **بيان إعجاز القرآن** " بالغاية التي رسمها المؤلف، وكان قد رأى أنّ النّاس أكثروا الكلام في شـأن الإعجاز وذهبوا فيه مذاهب مختلفة، ولكنّهم في رأيه لم يصدروا عن رأي "وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته "[7].

وأبو الحسن علي بن عيسى الرُّماني (ت386هـ) في مقدمة رسالته "**النكت في إعجاز القرآن**" يشير إلى أنّ تأليفها كان جوابا عن سؤال وُجِّه له عن ذكر النُّكت في إعجاز القرآن فقال ردّاً عليه : " سألتَ – وفقك الله – عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وأنا أجتهد في بلوغ محبّتك والله الموفق للصواب بمنّه ورحمته "[8].

لقد كان هذا السؤال باعثا للرماني على البحث عن الحجج الدامغة للإعجاز القرآني خاصة وأنّ السائل يطلب ذلك في إيجاز، والكاتب يسمّي كتابه "النكت" وهي اللطائف الدقيقة التي تفتقر في إدراكها إلى مزيد من إعمال العقل، وكدّ الذهن[9] مما سيفرض على الكاتب شيئا غير يسير من التركيز على ما يشكّل حقيقة هذا الإعجاز، لأنّ الموقف يستدعي ذلك، فالإجابة يجب أن تكون على قدر السؤال، وتلك حقيقة يعلمها الرُّماني، ويعمل على هديها في هذه الرسالة .

ويسعى أبو بكر الباقلاني (ت403 هـ) إلى الغاية نفسها، ويسير قريبا ممّا رسمه الخطابي فهو بعد أن ينبّه في مقدمة كتابه" **إعجاز القرآن** " إلى التقصير في الذّود عن الدِّين، وبيان إعجاز القرآن،

وخوض الملحدين فيه، والذين أعادوا مقولة الأوائل فيه بعد أن صار عرضة لمن شاء، وإلى الحاجة إلى التأليف في الإعجاز[10]، بعد هذا كلّه يحدِّد الباعث على تأليفه انطلاقا من إشكال، حيث يذهب إلى أنَّ سائلا سأله أن يذكر له " جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة"[11]، فيأتي كتاب " إعجاز القرآن " إجابة عن سؤال هذا السائل، اعتمادا على ما أبانه السابقون في المسألة دون بسط وتفصيل لئلا يقع في التكرار كما قال[12].

لقد تبيّن من خلال هذه النماذج أنّ المقصد الجوهري من تأليفها هو بيان إعجاز القرآن الكريم، وأنَّ موضوعها الأساس هو حقيقة هذا الإعجاز، وكيفية إثباته والاستدلال عليه، خاصة في جانبه البلاغي، وهي نقطة الاتفاق التي نلفيها في الرسائل الثلاثة، كما نلفي فيها الانطلاق من هذه الأسئلة العلمية التي تبتغي البيان والإيضاح، والجواب حينما يكون باعثه الإشكال العلمي يكون أحرى بالدقة والتركيز، لأنّه يحفّز المسؤول، ويثير فضوله وحيويته، ويوجِّه تفكيره إلى ما هو أهم في القضية المعالجة، خاصة إذا كان السؤال دقيقا ومركزا مثلما رأينا .

ومن هذا نستخلص أنَّ ما يطبع هذه المقاصد بطابع الوظيفية هو الدقة في تحديد موضوع الرسالة، مع ضبط للإشكالية المحورية وهي إمّا بيانٌ لحقيقة الإعجاز، أو كشفٌ لدقائقه ولطائفه، والدرس حينما ينبني على موضوع محدد وهدف مركّز يكون درسا وظيفيا في جوهره، لأنّه لا يستوقف المتعلم إلا على ما يشفي فضوله المعرفي، ويكشف جوهر القضية المدروسة .

2- وظيفية المباحث البلاغية في الدراسات الإعجازية .

أشرنا سالفا إلى ما كان بين أعلام الدراسات الإعجازية من إجماع على أنَّ أظهر وجه لإعجاز الخطاب القرآني هو وجهه البلاغي والبياني، وإن كنا نقف على جانب من الاختلاف في بيان ذلك وتفصيله لدى هؤلاء الأعلام، فإنّ أغلب المادة الموظفة في التحليل والتفصيل هي مادة بلاغية بلا منازع، مما يعني أنّ هذه المادة وظّفت بيانا لحقيقة الإعجاز البلاغي .

فالخطابي الذي كان همُّه بيان إعجاز القرآن يعرض لجملة من وجوه الإعجاز التي ذهب إليها من قَبلَه ويردُّها وجها وجها، ثمّ هو يقف أمام الوجه البلاغي ويرى أنّ أكثر العلماء قد قال به، لكنّه أشكلت عليهم كيفيتها، وجروا في ذلك إلى التقليد، وغلبة الظنِّ، وعجزوا عن تحديد البلاغة التي يختص بها القرآن، وأشاروا إلى سائر أجناس الكلام التي يقع فيها التفاضل، ولكنهم في رأيه لم يأتوا بما يقنع في كشف حقيقة الإعجاز[13].

ولذلك فالسؤال الذي يحيّر الخطّابي ويؤرقه هو: ما هي هذه البلاغة على وجه التحديد التي يختصُّ بها القرآن الكريم دون غيره ؟، ولهذا انصبَّ اهتمامه على بيان ما أُشكِل، وإيضاح ما غمض فيما ذهب إليه الأعلام من هذا الإطلاق العام، فرأى " أنَّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها البليغ الرصن الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرَّسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد شيء منه البتة، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبه، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة"[14].

وهكذا يتوصل الخطابي إلى أنَّ إعجاز الخطاب القرآني إن كان في بلاغته فهو في ألفاظه التي لا أفصح ولا أجزل منها، وفي معانيه التي لا أرقى ولا أعلى درجة منها، وفي نظمه الذي لا أحسن ولا أشد تلاؤما وتشاكلا منه، وقد اختصر هذا كلَّه في عبارة موجزة :" واعلم أنَّ القرآن إنما صار معجزا لأنَّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصحَّ المعاني"[15].

وحتى يستدلَّ على حقيقة الإعجاز البلاغي عرض لبعض الاستعمالات اللّغوية التي رأى الطاعنون في القرآن الكريم أنَّها غير مألوفة، كإسناد الأكل للذئب:"فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ"[16]، وإسناد اليسر للكيل: " ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ "[17]، ونسبة الهلاك للسلطان : " هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ "[18]، كماعرض لما وسموه به من سوء التأليف، ووجود الحذف الكثير والاختصار[19]، وراح يردُّ على هذه الطعون،

ويعلل إمكانية التعبير بما ورد في القرآن بكل الاحتمالات التي يجد لها مثيلا وشاهدا في لغة العرب وأشعارهم، وفي أثناء ذلك يشير إلى مباحث البلاغة، ويعلل سرّ الإعجاز باستعمالها.

ومن ذلك حديثه عن الاستعارة وقيمتها البلاغية، فقد :" تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة، كقوله عزّ وجلّ : " وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْـــهُ النَّهَارَ"[20] والسلخ هاهنا مستعار وهو أبلغ منه لو قال نخرج منه النهار، وإن كان هو الحقيقة"[21]، فاستعمال الاستعارة في رأيه أكثر ملاءمة للمعنى المراد .

والمتتبع لردوده على هذه الطعون والمزاعم يجد أنّها بلاغية في صميمها، ويمكن اختصارها فيما سمّاه عمود البلاغة، وهو عنده "وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به"[22]، أو ما أصبح يصطلح عليه باسم "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"سواء في اختيار اللفظة المفردة، أو تأليف العبارة، وفي ظلّ ذلك كان حديثه عن انتقاء اللّفظ ليلائم معناه، وتبادل بعض حروف المعاني مواضعها، والحذف، والتكرار، والنظم وغيرها من المباحث البلاغية .

وقد نهج الرُّماني النهج نفسه، فركّز بحثه في إعجاز القرآن على الوجه البلاغي وفصّل فيه من حيث أوجز في بيان غيره من الأوجه، وذهب إلى أنّ البلاغة على " ثلاث طبقات منها ماهو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن "[23]، وعرّف البلاغة بكونها " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ "[24]، وجعل مظاهر هذه البلاغة في عشرة أقسام هي : "الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان"[25]، ثمّ فصّل هذه الأقسام قسما قسما .

ولهذا فإنّ مباحث البلاغة عند الرماني تبدو أكثر وضوحا وجلاء منها عند الخطّابي، فهو يحدّد عددها، ويسمي أقسامها، ويضبط مصطلحاتها، وهو لا يكتفي بالإشارة إليها في عرض حديثه عن إعجاز القرآن بل يقف عند كلّ قسم منها وقفة تحليلية يستشهد لها من آي القرآن الكريم، وكأنّي

به يلفت عناية القارئ إلى أنّ هذه المباحث البلاغية هي مظاهر الإعجاز فيه، ونتأكد من ذلك خاصة حينما يلجأ للمقارنة بين بعض النماذج البلاغية المألوفة من كلام العرب، وآيات من القرآن الكريم كمقارنته بين قوله تعالى : " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[26]، وقول العرب :" القتل أنفى للقتل " فيتوصل بالتحليل للآية والمثل إلى ما بينهما من تفاوت في البلاغة والإيجاز، وإلى أنّ الآية القرآنية تفضل القول المأثور من أربعة أوجه هي : كثرة الفائدة، وإيجاز العبارة، والبعد عن التكلف، وحسن تأليف الحروف[27]، وهو من خلال هذه المقارنة والتحليل يضع يده على كثير من جماليات المبحث البلاغي، ويحدد المواضع التي يوظف فيها، والأغراض التي تستفاد منه .

والباقلاني الذي يعدُّ كتابه " إعجازالقرآن " أعظم كتاب أُلِّف في الإعجاز إلى اليوم"[28] يردُّ جملة وجوه إعجاز القرآن إلى ثلاثة أوجه أحدها: تضمنه الإخبار عن الغيوب وذلك يخرج عن قدرة البشر ولا طاقة لهم به[29]، وثانيها : ما فيه من القصص الديني وسير الأولين، وهو أيضا مما لا سبيل إليه[30]، والوجه الثالث :" أنّه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه"[31]، وهو الآخر يجعل هذا الوجه أهم الوجوه، وكأنّه يذهب إلى أنّ بلاغة القرآن وبديع نظمه، وحسن تأليفه هي الصورة الأجلى في إعجازه، لأنّه مما يمكن السعي في معارضته مقارنة بالوجهين السابقين، ولذلك يقف هو الآخر عند هذا الوجه وقفة تفصيلية لأنّ من سبقه من العلماء إلى القول فيه أطلقه على الجملة كما قال[32].

وقد سعى الباقلاني إلى كشف العلاقة بين الإعجاز والبلاغة، إلّا أنّه ثار على من قال بإعجاز القرآن الكريم من جهة ما فيه من وجوه البلاغة ومباحثها فحسب[33]، وفي أثناء ذلك حدَّد طبيعة المتلقي الكفيل بإدراك حقيقة الإعجاز : لأن ذلك ممَّا لا سبيل إليه، إلّا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلِّمين، ونظر في شتى أصول الدين"[34].

وحين شرع في بيان الإعجاز القرآني ذهب إلى أنّ " الذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه : منها ما يرجع إلى الجملة[35]، ومنها اشتماله على الفصاحة والغرابة والتصـــرف

البديع، والمعاني اللطيفة[36]، ومنها أنّه عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين[37]، ومنها أنّ القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب... [38]، ومنها أنَّ القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس...[39]، ومنها أنّه مشتمل على ما يشتمل عليه سائر كلامهم من البسط والاختصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوُّز والتحقيق [40]، ومنها أنّ المعاني التي تضمنها بتلك الألفاظ البديعة موافقة بعضها بعضا[41]، وغيرها كثير من هذه الوجوه والمعاني التي ذكرها .

والملاحظ أنّ هذه الوجوه من إعجاز القرآن كلّها ممَّا يتعلق بالبلاغة ومباحثها، ولكنّ الباقلاني لم يكتف بذلك بل راح يعرض لجملة من الفنون والمباحث البلاغية، بعد أن طرح إشكالا هاما صاغه على الشكل التالي : هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟"[42] .

وقد مهَّد للإجابة عن هذا الإشكال بقوله : " ذكر أهل الصنعة ومن صنَّف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها، ثمّ نبيِّن ما سألوا عنه، ليكون الكلام واردا على أمر مبيّن، وباب مقرَّر ومصوَّر"[43]، وهو بعد أن يذكر نماذج من ألفاظ البديع ممثلا لها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكلام الصحابة، وكلام الأعراب عامة، يعرِّج على ذكر طرق هذا البديع في أشعار العرب، ويمثل لها أحيانا من القرآن الكريم، فيعرض للاستعارة، والإرداف، والغلو والإفراط في الصنعة، والتمثيل أو المماثلة، والتضاد أوالمطابقة، والتجنيس أو الجناس، والمقابلة، والموازنة والمساواة، والإشارة، والغلو والمبالغة، والإيغال، والتوشيح، ورد عجز الكلام على صدره وصحَّة التقسيم، وصحة التفسير، والتّكميل والتّتميم، والتَّرصيع وأنواعه، والتكافؤ، والتعطُّف، والسلب والإيجاب، والكناية والتعريض، والعكس والتبديل، والالتفات، والاعتراض والرجوع، والتذييل، والاستطراد، والتكرار، والاستثناء، وهو يشرح هذه الطرق ويبيِّن ما تنطوي عليه من أغراض .

ومما عرض له في باب الاستعارة قوله : " ومن بديع الاستعارة قول زهير[44] :

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ

... ومن الاستعارة في القرآن الكريم كثير، كقوله : "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ"[45]، يريد ما يكون الذِكر عنه شرفا، وقوله : "صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً"[46]، قيل : دين الله أراد، وقوله : " اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ "[47] "[48].

وهو يعرض لكل مبحث بهذا الشكل وكأني به يشير إلى أنّ ما ورد من ألوان البديع في القرآن الكريم ليست معجزة في حدِّ ذاتها وذلك لوجود ما يماثلها في كلام العرب شعره ونثره، والذي يؤكد هذا المعنى هو اعتراضه ـ بعد عرضه لكل الفنون والمباحث ـ على من يرى أنّه يمكن استفادة الإعجاز من هذه الوجوه، ويذهب إلى أنّه " لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادَّعوه في الشعر ووصفوه فيه، وذلك أنَّ هذا الفنّ ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرُّب به، والتصنع له "[49].

فإذا كانت الفنون البلاغية ليس فيها ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف لأننا نجد ما يماثلها في سائر الكلام، فما الشيء الذي ينطوي عليه القرآن الكريم وتتحقق فيه هذه الصفة التي هي مناط الإعجاز عند الباقلاني ؟ .

نلفي إجابة الباقلاني عن هذا السؤال عندما يعلِّق سرَّ الإعجاز بوجه يراه فريدا في القرآن لا مثال له، فيقول:"أمَّا شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقا، كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة، والمعنى الفذَّ الغريب"[50].

وهو يعقد فصلا بعنوان " وصف وجوه البلاغة " لخص فيه فنون البلاغة العشرة التي رأى الرُّماني أنها جهة من جهات إعجاز الخطاب القرآني، وهو بعد تلخيصها يذهب إلى أنَّ "منها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمُّل له، ويدرك بالتعلُّم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به، وأمّا مالا سبيل إليه بالتعلّم والتعمُّل من البلاغات فذلك هو الذي يدلُّ عليه إعجازه "[51]، وبعدها يقرِّر أنَّه ينكر أن تكون هذه الوجوه معجزة بانفرادها حيث يقول : "وإنما ننكر أن يقول قائل : إنّ بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه مع ما يتصل به من الكلام

ويفضي إليه مثل ما يقول : إنَّ ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإنّ التشبيه معجز، وإنّ التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة "[52].

ونستطيع أن نستخلص من هذه النصوص أنَّ إعجاز القرآن الكريم عند الباقلاني يمكن أن يتعلق بفنون البلاغة بشرط أن لا نعتبرها كذلك وهي منفردة خارجة عن سياقها ونظمها، بل لا بد أن ينظر إليها من خلال النظم الذي وردت فيه، والسياق الذي ركبت فيه، وعلاقتها بما قبلها وبعدها، وإجمالا طريقة نظمها وصوغها .

والباقلاني بهذا الطرح يحاول أن يجمع بين فكرتين في إعجاز القرآن الكريم، فكرة النَّظم التي ذهب إليها الجاحظ والقاضي عبد الجبار، وفكرة الرُّماني الذي علَّق الإعجاز بوجوه البلاغة العشرة التي ذكرها، ذلك أنَّه لا قيمة لهذه الوجوه إلَّا في ضوء التركيب والتأليف الذي يسمى نظما، والذي حوّله عبد القاهر الجرجاني فيما بعد إلى نظرية لها أركانها ومبادئها معلقا بها حقيقة الإعجاز، ومستخلصا أنَّ النَّظم لا يتصل بالكلمة ولا بالمعنى، ولا بالصُّورة، وإنما يتَّصل بالسياق الذي يرد فيه التعبير .

إنّ المطلع على تراث أهل الإعجاز يجد حضورا قويا للدرس البلاغي ومباحثه، وهو حضور فعّال ووظيفي، لأنّه لم يجعل من هذه المباحث غاية في حدّ ذاتها بل اتّخذ منها وسيلة للإثبات والاستدلال والاحتجاج على أنّ مكمن الإعجاز القرآني هو ما فيه من بلاغة تتفرّد عن بلاغات البشر وإن كانت بنفس الوسائل .

ويرى المطلع على هذه النماذج وغيرها من الدراسات الإعجازية هذا الالتزام بالقضية الأساس المراد دراستها وهي حقيقة الإعجاز القرآني، بل أكثر من ذلك حينما يعلّق هؤلاء الأعلام هذه الحقيقة بالوجه البلاغي، ويتخذون من المباحث البلاغية وسيلة من وسائل البيان والإيضاح، وهم لا يعنيهم من ذلك التنظير ولا التقعيد، ولا التقسيم ولا الاصطلاح إلا بالقدر الذي يتخذون منه هذا المبحث دليلا على تفرّد الخطاب القرآني، مما يعني أنَّ الدرس البلاغي عندهم لم يكن غاية في حدِّ ذاته بل كان وسيلة إلى غاية هامة جعلها أبو هلال العسكري على رأس غايات البلاغة، والتي

لأجلها جعل دراسة علم البلاغة بعد المعرفة بالله أحق العلوم بالتعلّم، لكونها السبيل الموصل إلى معرفة إعجاز كتاب الله عزّ وجل[53].

ومن هنا يظهر الفرق بين البلاغة الوظيفية كما نجدها في هذه الدراسات حيّة تبعث على التأمل والتفكير، والروية، وإمعان النظر، وبين البلاغة النظرية كما تلقفناها جاهزة من الشروح والملخصات أمثلة وشواهد مكرورة، وقواعد مرسومة، ومصطلحات دقيقة، وتعريفات وتفريعات، وهو ذات الفرق بين البلاغة الوسيلة، والبلاغة الغاية، بين المبحث البلاغي حينما يُدرس ليؤدي وظيفة في تكوين ملكات المتعلِّم الفكرية والفنية، وبينه حينما يدرس ليشكِّل معرفة بلاغية ليس بعدها شيء.

3-وظيفية المنهج البلاغي في الدراسات الإعجازية

لقد كان السعي كما ألمحنا إلى إثبات الإعجاز البلاغي على وجه الخصوص بحاجة ماسة إلى البيان والتوضيح كما هو بحاجة إلى الإثبات والاستدلال، ولذلك عمد أعلام هذه الدراسات إلى التحليل المدعوم بالتعليل والمبني على توظيف الشاهد البلاغي الحي، وقد كان من أهم معالم فعالية ووظيفية المنهج البلاغي خاصية الموازنة أو ما يسمى بـ "القراءة بالمماثلة"[54].

لقد كانت " القراءة بالمماثلة " حاضرة في مختلف الدراسات الإعجازية وفيما مهّد لها لأنَّ جوهر البحث في هذا الحقل المعرفي يقتضي الموازنة حتى يتمَّ ترجيح الحكم لواحد من النصوص دون غيره، وقد أجمع الباحثون على تفوق الخطاب القرآني، وقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى رائد المؤلفين في التشريع لهذا النهج في كتابه " مجاز القرآن "[55].

ومن النماذج التي يمكن أن نمثِّل بها لهذه الخاصية حديث الرمّاني عن الإيجاز حيث لجأ إلى الموازنة بين القرآن الكريم والمأثور من كلام العرب حين قال : " وهذا الضرب من الإيجاز ـ يقصد الإيجاز بالقصر دون الحذف ـ في القرآن كثير، وقد استحسن النَّاس من الإيجاز قولهم: "القتل أنفى للقتل"، وبينه وبين لفظ القرآن الكريم ـ يريد بذلك قوله تعالى : " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "[56] ـ تفاوت في البلاغة والإيجاز، وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنّه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة "[57].

وهو لا يكتفي بالإجمال بل يفصل هذا التفاوت فيذهب إلى أنّ الكثرة في الفائدة في قوله تعالى لما فيها من معنى قولهم " القتل أنفى للقتل " وزيادة معان حسنة منها إبانة العدل لذكره القصاص، ومنها إبانة الغرض المطلوب المرغوب فيه لذكره الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به، وأمّا الإيجاز في العبارة فإنّ الذي هو نظير " القتل أنفى للقتل " قوله (القصاص حياة) والأول أربعة عشر حرفا، والثاني عشرة حروف، وأما بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فإن قولهم : "القتل أنفى للقتل" تكريرا غيره أبلغ منه، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة، وأمّا الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ، فإنّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام..."[58].

ثم تخلص هذه القراءة المبنية على الموازنة إلى الحكم الذي يرجح بلاغة القرآن الكريم على المثل العربي المأثور، مستدلا بذلك على إعجاز القرآن الكريم في باب الإيجاز قائلا : "فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن، وإن كان الأول بليغا حسنا"[59].

وقد كان للقراءة بالمماثلة ذات الأهمية لدى الباقلاني إلّا أنّه يعمد فيها إلى شكل جديد، ذلك أنّه يورد نصوصا كاملة أو شبه كاملة من الشعر والنثر متجاوزا بذلك ما درج عليه الدارسون من اعتماد البيت والبيتين شاهدا، حيث يعرض لجملة من خطب النبي صلى الله عليه وسلم، وخطب الصحابة رضوان الله عليهم، وخطب لبعض مصاقع الخطابة العربية، وبعض من القصائد المشهورة لفطاحل الشعر العربي .

والغاية الجوهرية من هذا العرض دعوة إلى التأمل والنظر والموازنة لإثبات البون الشاسع بين نظم القرآن الكريم وغيره من الكلام البشري، وهي أيضا تأكيد حقيقة أنّ الشعر قد يحوي ألوانا كثيرة ومختلفة من البديع، ولكنّه في نهاية الأمر لا يمكن أن يكون مثالا راقيا للكلام البليغ لما فيه من

الصنعة التي قد تجرُّ إلى إبداع القبيح[60]، كما يريد أن يقرِّرَ أنَّ هذه الوجوه البديعية التي أتى على ذكرها لا يمكن أن تكون وجها من وجوه الإعجاز لأنَّها ماثلة في شعر الشعراء وليست مما تفرَّد به القرآن الكريم، لينتهي إلى أنَّ هؤلاء الشعراء من أمثال امرئ القيس، وزهير، والنابغة، على الرغم من تميُّز إبداعهم إلا أنَّ نظم شعرهم ينزل عن بديع نظم القرآن، وأنّه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن ممّا فيه من وجوه البديع الموجودة في الشعر[61].

كما يمكننا أن نستخلص غاية أخرى وهي أنَّ الباقلاني يسعى إلى بيان الطريق الذي يستطيع من خلاله الدّارس أن يميّز جيّد الكلام من رديئه فيحيلنا إلى أرقى النماذج الشعرية والنثرية ويطالبنا بالتأمل فيها، وحسن النظر، والموازنة بينها " وكأنَّ الباقلاني في كتابه هذا يضع المنهج لتخريج هذا اللَّون من طلاب العلم، ويرسم طريقا رائدا، ورائعا أغفلناه تاما فكانت العجمة، وكان العيُّ في أفواه كثير من القائمين على درس العربية "[62].

وبهذه المعالم الوظيفية سواء فيما تعلّق بمقاصد التأليف، أم بالحضور المكثف للبلاغة ومباحثها، أم بالمنهج المتّبع في اتخاذ هذه المباحث وسيلة للاستدلال نتبيّن أنّ الدراسات الإعجازية مثّلت بحق جانبا هامّا من وظيفية البلاغة العربية التي صرنا نفتقدها في درسنا البلاغي الحديث لأنّنا اعتقدنا أنّ البلاغة علم يجب أن يستخلص من مضانه العلمية التي تمثلها كتب الشروح والملخصات ناسين أو متناسين أنّ للدرس البلاغي حضورا مختلفا في مضان أخرى شكلت جانبه الفني الوظيفي والتي تعدّ الدراسات الإعجازية من أهم ما يمثلها .

ولهذا كلّه وجب أن تستثمر هذه الدراسات من جديد في إرساء منهج تعليمي وظيفي يكون من غاياته الأساسية أن يصبح الدرس البلاغي سبيلا إلى إقدار المتعلمين وتدريبهم على ممارسة مختلف المهارات اللغوية، وخاصة ما تعلّق منها بتكوين الملكات الفنية من فهم للنصوص الأدبية، وتذوق لمواطن الجمال فيها، وقدرة على التحليل والتعليل الذي يقود شيئا فشيئا إلى تكوين الكفاءة النقدية، وبهذا التصور نأمل أن تُبعث الحياة في الدرس البلاغي من جديد، ليعود إلى أداء دوره الوظيفي كما كان منطلقه في الدراسات النقدية، والدراسات الإعجازية.

مراجع المدخل وإحالاته:

1- ينظر : أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، منشورات الاختلاف، المغرب، (د، ط)، 2010 م، ص : 76 .

2- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط2، (د، ت)، ص : 09 .

3 - داود عبده، نحو تعليم اللغة العربية وظيفيا، مؤسسة دار العلوم، الكويت، ط1، 1979 م، ص: 09 .

4 - ينظر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح، السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (د ط)، (د، ت)، ص :4 - 5 .

5 - البقرة، الآية : 88 .

6 - الإسراء، الآية : 89 .

7 - الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح، وتعليق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط 3، 1976 م، ص : 21 .

8 - الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تح، وتعليق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط 3، 1976 م، ص : 75 .

9 - ينظر : محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1418هـ، 1997 م، ص : 85 .

10 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص :07 .

11 - المصدر نفسه، ص :07 .

12 - ينظر: المصدر نفسه، ص :07 .

13 - الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص : 21 - 24 .

14 - المصدر نفسه، ص : 26 .

15 - الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 27 .

16 - يوسف ، الآية: 17 .

17 - يوسف، الآية : 65 .

18 - الحاقة : 29 .

19 - الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 38 - 41 .

20 - يس، الآية : 37 .

21 – الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 44 .

22 – المصدر نفسه، ص : 29.

23 – المصدر نفسه، ص : 75 .

24 – نفسه، ص : 75– 76.

25 – نفسه، ص : 76 .

26 – البقرة، الآية : 179 .

27 – ينظر : الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 77 .

28 – السيد أحمد صقر، مقدمة تحقيق إعجاز القرآن، ص : 76 .

29 – ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص : 48 .

30 – ينظر : المصدر نفسه، ص : 50 .

31 – المصدر نفسه، ص : 51 .

32 – ينظر: المصدر نفسه، ص : 51 .

33 – ينظر: عبد العزيز عبد المعطي عرفة، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة، ص: 400 .

34 – الباقلاني، إعجاز القرآن، ص :08 – 09 .

35 – المصدر نفسه، ص : 51 .

36 – المصدر السابق، ص : 53 .

37 – المصدر نفسه، ص : 54 .

38 – نفسه، ص : 57 .

39 – نفسه، ص : 57 .

40 – نفسه، ص : 62 .

41 – نفسه، ص : 63 .

42 – نفسه، ص : 101 .

43 – نفسه، ص : 101 .

44 – ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ 2005هـ، ص : 66 .

45 – الزخرف، الآية : 44 .

46 – البقرة، الآية : 138 .

47 – البقرة، الآية : 16 .

48 – الباقلاني، إعجاز القرآن، ص : 117 .

49 – المصدر نفسه، ص : 168 .

50 – المصدر السابق، ص : 169 .

51 – المصدر نفسه، ص : 417 .

52 – نفسه، ص : 418 .

53 – ينظر : العسكري، كتاب الصناعتين، ص : 01 .

54 – ينظر : أحمد يوسف، بنية الخطاب البلاغي وسلطة النص الغائب القراءة بالمماثلة، مجلة دراسات سيميائية، العدد 7، أوت 1992 م، ص : 65، وفحوى المصطلح باختصار أنّه لا تثمين لأي نص إلا بموازنته بغيره من النصوص .

55 – عوّل أبو عبيدة في فهمه للقرآن الكريم في كتابه " مجاز القرآن " على القراءة بالمماثلة حيث كان يستحضر في كلّ آية نصا أدبيا يستدل به على صحة فهمه لمعنى الآية، فكان بذلك من رواد المؤلفين الذين سنوا قراءة القرآن الكريم بالاستناد إلى النص الأدبي.

56 – البقرة ، الآية: 179 .

57 – الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص : 77 .

58 – المصدر نفسه، ص : 77 – 78.

59 – المصدر نفسه، ص : 78.

60 – ينظر : الباقلاني، إعجاز القرآن، ص : 164 .

61 – ينظر : المصدر نفسه، ص : 167 – 168 .

62 – محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ص : 281 .